

## الفصل العاشر

### ٥٠- الصليبيون

توالى على العرب فى فلسطين لنزع السيادة منهم هجمات كثيرة أعظمها الحملات الصليبية الأوروبية التى كان الباعث لها أسباباً خطيرة لا يسعنا تفصيلها فى هذا الموجز بل نكتفى بسردها مختصرة فنقول: ظهرت هذه الحرب لعامة شعوب أوروبا بمظهر دينى فقط فأشاعوا أن السلجوقيين أهانوا حجاج المسيحيين واعتدوا عليهم غير أن التواريخ العربية لم ترو هذا الخبر قطعاً بل ذكرت أن المسيحيين كانوا ينعمون فى حريرتهم مثل المسلمين وما كان يقترفه بعض الملوك مثل الحاكم الفاطمى من الظلم والجور كان يشمل المسلمين والمسيحيين على السواء ولكن هذه الحروب كانت منطوية على أمور سياسية كما ورد فى خطاب البابا أوربانوس الذى حرض به المالك التجارية على اغتنام هذه الفرصة ويقال: إن روم القسطنطينية خافوا سلجوقى الأناضول فاستغاث إمبراطورهم بالبابا ووعده أن يضم كنيسته إلى كنيسة روما ويقال: إن الحكومات التجارية حرصت على أسواق الشرق لما اضطرت العلائق بين آسيا وأوروبا فهبت تدافع عن مصالحها. وقيل أن أيدى أمراء المقاطعات فى أوروبا لاسيما فى انكلترا كفت وألغيت امتيازاتهم فأخذوا يبحثون لهم عن بلاد أخرى يستعيضون بها عن مقاطعاتهم. ومما هو جدير بالذكر أن أوروبا كانت حينئذ مسوقة بتيار دينى وهوس مسيحي وكان ذلك الوقت زمن الفروسية والنجدة فنذر كل فارس أن ينقذ الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ويغيث الضعيف والمظلوم. وهذا الشعور الدينى كان عاملاً عظيماً فى الحروب الصليبية لأنه عز على أبناء المسيح فى أوروبا أن يروا أقدس بقعة لديهم فى يد عدوهم. فلما زار القدس بطرس الناسك الأقرنسى فى أواخر القرن الحادى عشر وشهد خشونة التجبر وذاق مرارة التحكم التهيب فى صدره نار الحمية وقابل

بطريك القدس فحدثه بهذه الشدة والقساوة ووعده أن يستبدل هذا الذل بالعز  
وصمم على إثارة نفوس زعماء أوروبا إذا هو لم يمت فلما رجع أعلن ما رآه وحدث  
البابا بما عاين ولمس فعقد الاجتماعات وأرسل المناشير وخطب ووعظ وأقنع الأمم  
الأوروبية وهاجهم وحرصهم على فتح فلسطين والاستيلاء على الأماكن المقدسة  
ولكننا نضرب صفحاً عما يتعلق منها بأوروبا ونحصر بحثنا بما جرى في فلسطين  
لأن هذا المختصر لا يتحمل التظليل فنقول كانت فلسطين قبل قدوم الأفرنج  
محطة للنواب لأنها توالى عليها الزلازل وفتكت بها الحروب والفتن وأهزلتها  
المجاعات بل كانت شبه كرة يتلقفها فريق ويتخطفها آخر فيوماً تكون تحت  
النفوذ العباسي ويوماً في يد الفاطمي يتنازع عليها القواد ويغتصبها الأمراء  
ويقتسمها العمال وليس للخلفاء إلا الخطبة والسكة والطراز وأصحاب الأقاليم  
والبلاد هم السلاطين والملوك يحكمون ويجبون الأموال ويعلمون الحروب ويؤيدون  
الخلافة ويتمسكون به ليهبهم الألقاب ويخطب لهم على المنابر.

فزحفت جموع أوروبا إلى سورية باذلة أرواحها ومهج بنيتها وحملوا على الشرق  
تسع حملات تخللها كثير من النجذات بعضها هوى في الطريق والبعض الآخر  
وصل فلسطين.

الحملة الأولى: سنة ١٠٩٦ م أو سنة ٤٩٠ هـ

كانت الحملات الصليبية خليطاً من الفرسان "Knights" والجنود المنتظمة  
والمقطوعة تسير جماعات بمواشيها كالقبائل الرحالة فلا قائد يتعهدهم ولا أمير  
يدبر شؤونهم كأنهم قطيع من البشر ساقهم التمعصب الديني إلى الموت.

اجتمع في فرنسا سنة ١٠٩٥ م جمهور مختلط يبلغ عددهم مائتي ألف نفس  
بلا رابطة تجمعهم ولا ألفة تمسكهم إلا عاطفة رسم الصليب «+» المنقوش على  
سلاحهم وصدورهم. فساروا إلى ألمانيا فالنمسا فهنغاريا فالأستانة وهناك أحصى  
عددهم فإذا هم النصف والباقي تخطفه أهل البلاد فقتلوهم ومنهم من مات جوعاً  
أو ضل عن الطريق ومنهم من رجع فانطفأ أمله بإنقاذ القبر المقدس. فاستأنف

الباقون السير برأ إلى الأناضول فصدتهم السلاجقة إلا أنهم عجزوا عن إيقافهم. وبعد قتال عنيف استولوا على إنطاكية سنة ٤٩١ هـ وسنة ١٠٩٦ م ومنها انددروا إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا مُجددين فى سيرهم مصممين على فتح بيت المقدس فلما عرف الفاطميون بقدمهم ورأوا الخطر المحدق بهم طلبوا مصالحتهم على شرط أن يسهلوا الطرق لمن أراد زيارة القدس من المسيحيين فرفض الأفرنج وقصدوا الرملة فذهب إليهم نفر من أهالى بيت لحم ورحبوا بهم وحثوهم على قتال الفاطميين فصعدوا من الساحل إلى القدس وكان عددهم ٤٠ ألف مقاتل فحاصروها وتحملوا من المشاق والصعوبة ما أزعجهم.

#### ٥١- فتح القدس:

كانت القدس قبل الفتح الصليبي فى يد سلاجقة الشام فخرج عسكر الخليفة الفاطمى بقيادة الأفضل بن بدر الجمالى واستولى عليها أمناً فى شعبان سنة ٤٨٩ هـ فدخلت فى ملك المصريين وأنابوا عنهم فيها أفتخار الدولة فاتاها الإفرنج وحصروها نيفاً وأربعين يوماً وعانوا صعوبات شديدة نأتى على أجلها.

١ - قلة الماء: فإنهم كانوا ينقلونهُ من البيرة وعين كارم ولقتا.

٢ - نفاذ الذخيرة: إننا قد شهدنا أثناء الحرب العامة ما كان مجموعاً لتأمين المجاعات ومع ذلك فقد شكا الجنود الجوع والعطش وكانت الحكومة المحلية تحرسهم والشعب يؤازرهم فكيف بجماعات غرباء فى بلاد يمتتهم أهلها ويقبحون أعمالهم وينكرون فظائهم.

٣ - لوازم الحصار: فإن المحاصر يحتاج إلى أخشاب وأدوات أخرى وهؤلاء الدخلاء لم يحضروا معهم شيئاً من ذلك وكانت البلاد قاحلة والأحراج بعيدة عن القدس ولولا قدوم السفن الإيطالية التى كانت معها كثير من الأخشاب لما قدروا على بناء الأبراج ولما استطاعوا التسلق على جدران المدينة ولكنهم ذللوا كل هذه الصعوبات وحصروا المدينة ودخلها غود فرى من باب الساهرة وهو أول الداخلين ثم فتحت جميع الأبواب فملكوا القدس عنوة يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان

سنة ٤٩٢ هـ وسنة ١٠٩٩ م ولبث الفرنج يقتلون ويفتكون فى نساء وأطفال وشيوخ ومرضى المسلمين أسبوعاً ويقدر ما قتل منهم فى المسجد الأقصى ما يربو على ٧٠ ألف نفس وفيهم أئمة المسلمين وعلماؤهم وعبادهم ممن جاؤوا ببيت المقدس وما ندرى لو تجلى السيد المسيح وآهم يرتكبون تلك المخازى والمنكرات ماذا عساه يقول لهم وهو القائل «أحبوا أعداءكم» ولو أنا قايسنا بين دخول عمر ابن الخطاب الهدوى وبين دخول غودفرى الافرنسى الذى عاش فى القرن الخامس بعد عمر لخجل الفرنج من سيرة قائدهم وفظائمه وافتخر العرب بعدل خليفتهم ومآثره.

فلما رأى المسلمون ما حل بهم استجاشوا الجموع لمحاربة الفرنج واسترجاع بيت المقدس فهتف الأبيوردى بقصيدة عصماء منها:

وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بنى الإسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقليلهم	ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيضت ومن دُمى	توارى حياءً حسنها بالمعاصم
وتلك حروب من يغيب عن غمارها	ليسلم يقرع بعدها سن نادم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدى	رماحهم والدين واهى الدعائم
فليتهم إن لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فهاجت نفوس المصريين وحشد الأفضل أمير الجيوش عساكره وسار إلى عسقلان وأنكر على الفرنج ما فعلوه وتهدهم فعاجلوه وهزموه وقتلوا من جيشه كثيراً وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح فانسحب إلى عسقلان ومنها إلى مصر فحصر الفرنج عسقلان وأخذوا من أهلها ٢٠ ألف دينار قطيعة لهم وعادوا إلى

القدس متخاذلين فأسسوا مملكة لاتينية صغيرة على شكل الإقطاع الأوروبي القديم واختاروا غودفري أميراً عليهم وشرعوا يفتحون ما بقى من مدن فلسطين فعاجل غودفري أجله ودفن في كنيسة القيامة على يمين الداخل ويوجد هناك سيف يزعمون أنه سيفه ولا يعلم حقيقة ذلك الزعم وانتخب بعده أخوه بلدوين ففتح مدينة ارسوف أماناً وحيقاً وقيسارية وقتلوا أهلها. ثم فتحوا كافة مدن الساحل خلا صور وعسقلان وظلوا في حروب مستمرة مع الفاطميين وبوريى دمشق فلم يظفر أحدهم بالآخر وعجز المسلمون عن رد غاراتهم لأن بلادهم كانت منقسمة إلى إمارات وملوك عديدة واتفق أن استحكم الخلاف بين السلاجقة فشغلوا عن مقاومة الأجانب بمحاربة بعضهم بعضاً حتى إن «بكتاش بن تتش» أخا ملك سورية وايتكين الحلبي صاحب بصرى خالفهم فاطمان الصليبيون وظنوا أنهم ملكوا البلاد فبنوا قلعة الشوبك والكرك وحصون عثليت وصفد وطبرية. وفي سنة ٥١٩ هـ انضم أمير العرب دبيس بن صدقة إلى الفرنج وحارب معهم العرب والمسلمين وفي سنة ٤٩٦ هـ سير الأفضل أمير الجيوش مملوك أبيه سعد الدولة لمحاربة الفرنج فلقبهم بين الرملة ويافا وبعد قتال عنيف كبا به الجواد فقتلوه وهزموا جنده وملكوا ما فى خيامه فارسل الأفضل ابنه شرف المعالى فى جمع كثير وصادمهم قرب يازور وهزمهم وأثنخ فيهم وأسر كثيراً من زعمائهم وأرسلهم إلى مصر وفتح الرملة وعزم أن يذهب إلى فتح القدس فجاءت نجدة صليبية من البحر فقبط عزمه وخرارت قوته فانسحب إلى عسقلان واحتفى بها فحصرهم ثم قتلوا راجعين إلى القدس

وفى سنة ٥٠٢ هـ سار طغتكين إلى طبرية فحارب ابن اخت بلدوين وانتصر منه وأسره ثم هادن بلدوين أربع سنوات. وفى سنة ٥٠٧ هـ نزل طغتكين بجيشه الأحوانه وحارب الفرنج فخذلهم وغرق منهم خلق كثير فى البحيرة ونهر الاردن فاستفتاتوا بإفرنج طرابلس وإنطاكية فأنجدوهم وأعادوا الكرة ولكنهم جبنوا والتجأوا إلى جبل غرب طبرية فحصرهم طغتكين ٢٦ يوماً ثم سار إلى بيسان فهب بلاد الفرنج بين عكا والقدس. وفى سنة ٥١٢ هـ خف طغتكين لمحاربة

الفرنج فلقبهم بين دير أبوب وكر بصل (فى حوران) ودخل طبريا ونهبها وما حولها وقصد عسقلان واتفق مع الجيش المصرى المرابط فيها ثم عاد إلى دمشق وهكذا ظل المسلمون والصليبيون فى كروفر حتى سنة ٥٤٧ هـ وسنة ١١٥٣ م فانقض الفرنج على مدينة عسقلان وفتحوها ونزعوها من يد الفاطميين فاستراحوا من غزواتهم وغاراتهم. ثم قام بعد بلدوين الأول بلدوين الثانى والثالث والرابع والملك أمورى ولكن هممهم أخذت تضعف وتفتروهمم الوطنيين تقوى وتستمر لأن حماسة الصليبيين تلاشت وانطفأت حرارتها فزال المحرك الذى ساقهم لإنقاذ البلاد والقبر المقدس مما رأوا من فساد الرهبان وأطماع الأمراء الذين رجعوا إلى سيرتهم الأولى فاختلفوا وانشقت كلمتهم وانصرف كثير منهم إلى بلادهم وتخاصم الباقون على التاج والألقاب والسلطة والأموال وتفاقم بينهم الخلاف والانقسام ووجبت شمسهم بقدوم بطل الشرق السلطان صلاح الدين فذك عرشهم ونكس أعلامهم.